

في سيكولوجية الرمزية

بفلم

عمرشاه الزهبي

بليسانس الفلسفة بجامعة فؤاد.

٢

واليوم ، إذ أشرع في تفصيل ذلك اتخطط الذي رسمناه لسير هذه الدراسات
السيكولوجية في الرمزية الفنية ، وبخاصة الرمزية في التعبير الأدبي^(١) ، لنبدأ إذن ،
بتذكير القارئ بذلك التقسيم الأساسي الذي قسمنا الرمزية الفنية ، وبخاصة الأدبية
منها إليه هناك ، حين قلنا فيها إنها على أنواع ثلاثة :
نوع منها — وهو النوع الأول — قلنا فيه إنه الرمزية القائمة على أساس هذا
الشعور الفني^(٢) ، المسمى بـ (التعاطف الرمزي) الذي يحسه الشاعر أو المنشئ.

(١) — مجلة علم النفس مجلد ١ ، عدد ٣ ، فبراير ١٩٤٩

(٢) — التعاطف الرمزي (La sympathie symbolique) عاملة ملازمة للشاعر أو للفن.
الرمزي ، عمله يعيش في مختلف أشكال العالم الخارجي ؛ وهي ، بانتمائها إلى النظام الانفعالي
(l'ordre affectif) ليست مثلاً فكرياً كالذي كان يؤمن به (نوباليس — Novalis) (١٧٧٢ —
١٨٩١) الذي كان يقول بالثالية السحرية (Idéalisme magique) .. والشاعر الفرنسي (بودلير
Baudelaire) (١٨٢١ — ١٨٦٧) قد وعى هذه العاطفة في نفسه ، وغير عنها في قصيدته
(Correspondances) إذ يقول ما ترجمته :

« الطبيعة هبكل حيث أعمده حبة ، »

« تنفوه ، في بعض الأحيان ، بكلام غامض .. »

« الإنسان يمر فيها بين غايات من (الرموز) .. »

« تنظر إليه نظرة ألفة... الخ... » (من ديوان أزهار الشر)

ولقد عانيت هذه العاطفة ، وعبرت عنها ، ولكن في سياق فلسفي ، في قصيدتي: (من الأعماق)
المنشورة في مجلة المتكلم عدد يونيو ١٩٤٩ إذ أقول في نهايتها :

« قف بنا الآن يا شرع إذن ، خفي مجاذبي أنكبتها المخلوب ١١ »

« لم يجب » — قف بنا.. « ويهوى بحث البير : رق جنت عليه الفيوب.. »

« فوقفت وحدي أشبع هذا الوكب المر — آه — وهو يغيب .. »

« وحوال الكائنات (رموز) : في فؤادي مفتاحها محبوب ١١ »

الرمزي بين عالمه الداخلي وبين العالم الخارجي ، وهي الرمزية بالمعنى الصحيح ...
ونوع منها - وهو النوع الثاني - قلنا فيه إنه لا يقوم على هذا التعاطف
الرمزي ، وإنما هو رمزية من أنه أسلوب فني ، أدبي ، يحمل خصائص الرمزية ،
وهو أقسام^(١) ، أبرزها : الرمزية الصوفية .

ونوع منها - وهو النوع الثالث - قلنا فيه إنه يجب إضافته إلى هذين النوعين
الأولين ، وهو : رمزية النعوت الحسية ، وهو نوع هام ، وبخاصة في علم النفس ،
لما بشره من مشكلات سيكولوجية تتعلق بنوع انطباع الأحاسيس ، وبنوع التعبير
عنها .

وسنبدأ ، في هذه المقالة الثانية ، بمعالجة هذا النوع الثالث من الرمزية ،
وسيكولوجيته ، مرجعين معالجة سيكولوجية ذلك الضربين الأولين والهامين من الرمزية
الفتية إلى العدد المقبل إن شاء الله تعالى ...
ولكن لا بد لنا ، قبل هذا ، من وقفة متأنية ، على الرمز بمدلوله الفني الدقيق^(٢)
نبرز فيها خصائصه المنطقية ، والبلاغية ، والسيكولوجية وهي الخصائص التي سنراها
في كل من هذه الأنواع الثلاثة من الرمزية .

١

الرمز

مفاهيمه القديمة والحديثة - خصائصه - مقارنته بغيره من صور التعبير الأدبي

وهنا ، لا شك في أننا ، قبل كل شيء ، باستعمالنا كلمة (رمز) وباللغة
العربية - هذه اللغة التي لها تراثها الثقافي والفني الخاص - لا شك إذن في أننا نشير ،

(١) هذه الأقسام - ولكل منها خصائصه البلاغية - إذا نظرنا إلى مضمونها، أي إلى نوع
معانيها الرموزية هي : أولاً : في مجال التعبير عن المعاني أو التبريدات الفلسفية : (الرمزية الفلسفية) ؛
وثانياً : في مجال التعبير عن المعاني أو الوجعانات الصوفية : (الرمزية الصوفية) ؛ وثالثاً : في مجال
التعبير عن المعاني أو العواطف الأدبية : (الرمزية الأدبية) ؛ وهي إما عادية ، وهي التشبيهات
الرمزية الطارئة في الأسلوب ؛ أو أيقونية ، حكيمة وهي رمزية الأمثال التي يتخذ فيها الأديب
الحجوانات أو بعض الأشخاص للتعبير عن أفكاره ... وهكذا ...

(٢) - انظر مجلة علم النفس مجلد ٤ ، عدد ٣ ، فبراير ١٩٤٩ ، ص ٣٥٧ - ٣٦٤

بهذا الاستعمال ، في خلد الوافئين على أمور البلاغة العربية القديمة ذكرى (الرمز)
الذى كان في هذه البلاغة العربية القديمة نوعاً غامضاً من أنواع الكناية *Métonymie*
ترجمته باللغة الفرنسية^(١) (allusion)

١ - المفهوم العربى القديم للرمز ...

والحقيقة ، لست أريد هنا إثارة هذا المعنى القديم ، في خلد القارئ العربى ،
اليوم ، لأن هذا المعنى لم يعد قط ، ليعتمد القضية الرمزية . ولذلك حرصت في
دراساتى البلاغية في الرمزية على عزله عن مجال البحث الفنى . من أجل إحلال
المفهوم الجديد الذى لكلمة (رمز - Symbole) عند الغربيين الذين تأثر اليوم
بهم في شتى نواحي نشاطنا العلمى والفنى والفلسفى ...

وقد كانت طريقي فى عزله عن البحث إبراز ماهيته إلى جانب ماهية المفهوم
الجديد للرمز ، ثم مقارنتهما ، لإظهار بعد الشقة بينهما ...
وهنا لست أريد أن أطيل الوقوف على المفهوم القديم للرمز ، إلا أننى أقول فيه
إنه - مثل الكناية - لفظ ، أو عبارة ، كان يقصد منه ، في آن واحد معنيان :
معنى يسمونه المعنى اللازم ، وهو المعنى الذى يوحى سياق الكلام ، أى المعنى
الغبارى المرموز ، ومعنى ثان ، يسمونه المعنى الملزوم ، وهو المعنى الذى وضعت له
الألفاظ نفسها ... مثل ذلك فوطم في (البليد) : (عريض الوسادة ، أو - عريض
القفا) ... لأن التجربة الاجتماعية هناك ، في تلك البيئة الصحراوية ، حيث تتطلب
الحياة أجساماً هيافاً ، صلبة ، هى مستعدة دائماً للظوارئ وحى الدمار . هذه
التجربة الاجتماعية إذن علمتهم أن (البليد) وحده يكون عريض القفا - لقلة همته -
أو عريض الوسادة - لطلبه الراحة - وهكذا ، حتى أقترن في أذهانهم ، هذا المعنى
اللازم ، معنى البلادة ، بهذه الألفاظ ، وصارت العبارة رمزاً لها^(٢) ...

ولذلك نعت - ما دام نوعاً من أنواع الكناية - بالرمز الكنائى ، طلباً للدقة ،

(١) - يحسن هنا الرجوع إلى كتاب العالم الهندى شمس الدين القفير : (حقائق البلاغة) ،
الذى ترجمه للمنشرفى الفرنسى (Garcin de Tassy) تحت عنوان (Rhétorique et Prosodie des
langues de l'Orient musulman). الطبعة الثانية ، باريس ١٨٧٣ - ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢) - راجع بحث الكناية في (مختصر سعد الدين التفتازانى ، على تلخيص الفتاح للقزوينى ،
في علم اللغات والبيان والبدع ؛ وعليه تجريد البنانى) الطبعة الأولى مصر ١٣٤٧ - الجزء الثانى
ص ١٢٩ - ١٣٩

ودره لللبس ؛ تاركاً لفظ (الرمز) لوحده . لترجمة الكلمة الفرنسية (Symbole) وهو الرمز الذي تعينا مفاهيمه الغربية الحديثة اليوم . التي بدأتنا نحس بكيانها الفني فينا منذ جبران خليل جبران^(١) (١٨٨٣ - ١٩٣١)

ب - المفاهيم الغربية الحديثة للرمز

ولقد رأينا في العدد السابق من هذه المجلة ، أن هذه المفاهيم الغربية تنضم تحت مدلولين للرمز :

أحدهما : مدلول للرمز شامل عام يكون الرمز (Le symbole) فيه إشارة (Signe) ، كما سبق وشرينا على هذا كثيراً من الأمثلة العلمية والاجتماعية ... والآخر : مدلول للرمز فني دقيق . هو ، كما يعرفه الأستاذة^(٢) : "Harztfied, Thomas, Darmesteter." : الرمز شيء حسي . معتبر كإشارة إلى شيء لا يقع تحت الحواس ، وهذا الاعتبار قائم على وجود مشابهة بين الشئين أحس بها تخيلة الرامز ؛ وهذا هو التعريف الذي يهمننا الوقوف عليه هنا ، منطقياً ، وبلاغياً ، وسيكولوجياً ، لأنه اللبنة الأساسية في شئنا الأساليب الرمزية المختلفة .

ج - المدلول الدقيق للرمز الفني .

نعم ، هذا التعريف ، هو أكثر تعاريف الرمز بساطة وتجريداً ، وهو أن الرمز " شيء محسوس يشير إلى شيء معنوي ، بين الشئين مشابهة " . وإذا جربنا هنا أن نعصر الأمثلة عليه - من أجل تقريبه من الأفهام - قلنا : بهذا المدلول الدقيق للرمز نقول مع الجاهليين إن (النسر) رمز الخلود ، ونقول مع غيرهم إنه رمز القوة أو رمز الطموح . ونقول أيضاً مع المتصوفة العرب إن (الدبير) رمز الخسرة الإلهية ، و (الخمر) رمز الوصال والتقرب ! ونقول مع الحكماء إن (الأفعى التي تلدغ من أكرم لها) رمز المعروف المصنوع مع غير أهله ، ونقول مع غير هؤلاء وأولئك إن (الأسد) رمز القوة ، و (الزنبقة) رمز الطهر وهكذا ... وهكذا ... من هذه الأمثلة المعروفة ، التي تربينا في أساس تكوينها طرفين متغايرين : أحدهما حسي ، هو صورة النسر ، والدبير ، والكأس ، والخمر ، والأفعى ، والأسد ، والزنبقة ،

(١) - راجع كتابنا " جبران خليل جبران ، البشر بالرمزية العربية المعاصرة " نشر دار الفكر العربي ١٩٤٩ .

(٢) Dictionnaire de la langue française. H.T.D. (Sym.) Paris — Delagrave — 1890. (٢)

التي نرمز بها المعاني الموحاة وراءها ، وهي الخلود ، والقوة ، والظموح ، والحضرة الإلهية ، والوصال ، والمعروف الضائع ، والظهر ، وهكذا ...

ولقد ناقشت (الجمعية الفلسفية الفرنسية) في جلستها المنعقدة (١) في (٧ مارس ١٩١٨) معنى كلمة (Le symbole) الذي هو هنا ترجمة لكلمة (رمز) ، وكان المشترك في النقاش متفقين على هذا التعريف السابق الذكر . لولا بعض التديقات لبعض العلماء المناقشين ، منها مثلاً : « أن (٢) الأستاذ (هنري ديلاكروا - Henri Delacroix) قد لاحظ أن لفظة (رمز) تتضمن دائماً فكرة علاقة طبيعية لاصطلاحية ، هي علاقة المشابهة ، بين الشكل المحسوس وبين الشيء المرموز به ؛ وأن الأستاذ (ليون برنشفيج - Léon Brunschwig) قد عبر عن نفس هذه الفكرة ، قائلاً إن الرمز (Le symbole) هو في مقابل الإشارة الاصطلاحية الاصطناعية (Signe artificiel) من أنه له ، هو نفسه ، قوة لتمثيل باطنة فيه . »

د - الرمز في المجالين البلاغي والجمالي

وهنا في الحقيقة ، وبهذه القوة الإيحائية الكامنة في الرمز ، يفرق هذا الرمز بمعناه الفني الدقيق (Le symbole) عن الإشارة العادية (Signe) ، لتدخل معه في أجواء (التشبيهات) والاستعارات الرمزية ؛ ويصبح الرمز بهذا أداة ، من أكثر الأدوات الفنية إثارة للمخيلة ، أو تحريكاً للوجدان ...

ولقد عبر الفيلسوف الألماني (هيجل - Hegel) أيضاً عن هذه الفكرة نفسها في كتابه (٣) : « محاضرات في علم الجمال » ، مؤكداً قيمة هذه القوة الإيحائية الكامنة في الرمز ، والتي لا توجد إلا في (الصورة - Image) - من كونها صورة فقط - ولا في (الإشارة - Signe) - من كونها مات إبحاؤها مع الاصطلاح كما رأينا في هذه الأمثلة السابقة ...

Bulletin de la Société française de Philosophie. — Xavier Léon; André Lalande. (١)

(Mars-Avril 1917, publiés en mai 1919) Pp. 131-134 (Symbole-Symbolisme) ...

(٢) — هذه الفقرة من كلام الأستاذ (جورج دوما - G. Dumas) في مقاله عن (ملكة

الرمز) (La symbolisation) (ص ٢٦٥) المنشورة في الجزء الرابع من كتابه الجديد في علم النفس باريس — ألكان ١٩٣٤ — (ص ٢٦٤ — ٣٣٧).

(٣) — راجع في ترجمتها الفرنسية (Esthétique) اثر (Aubier) باريس ١٩٤٤ ، المجلدين الثالث والرابع وخاصة آراءه في (Les arts romantiques) ...

ولقد درست في إحدى مقالاتي المنشورة^(١) . هذه الناحية البلاغية ، وما ينشأ عن تشبيه المعقول بالخصوص ، أو تشبيه الخصوص بالمعقول من تشبيهات أو استعارات رمزية أيضاً . ليس هذا المجال مجال الاسترسال في تفصيلاتها ... إلا أننا هنا بكفينا أن نقول : إننا نصطلح : اليوم على أن نسمي التشبيه الذي يكون أحد طرفيه حسياً ، والآخر معنوياً : (تشبيهاً رمزياً) ، سواء ذكر هذان الطرفان أو لم يذكر منهما إلا طرف واحد كما في الاستعارات الرمزية ...

هـ - خصائص الرمز بمبدؤله الدقيق

وأظن أننا أمام تلك الأمثلة السابقة ، نجمع هذه الملاحظات البلاغية والجمالية . قد برزت أمامنا خصائص الرمز بمفهومه الفني الدقيق هذا . وعلى كل حال ، لنذكر هنا أن للرمز خصيصتين أساسيتين :

إحداهما : أن الرمز - بتعريفه هذا التعريف الدقيق - يستلزم مستويين متغايرين^(٢) : مستوى الأشياء ، أو الصور الحسية ، التي نأخذها قالباً للرمز من جهة ؛ ومستوى الحالات المعنوية التي نرمزها بهذه الصور الحسية من جهة ثانية... حتى أننا عند ما ندمج الصورة الحسية الكامنة على المستوى الأول ، بالمعنى المرموز الذي نجده على المستوى الثاني أتينا بالرمز ، الذي هو ، كما رأينا في تلك الأمثلة العديدة ، حمزة وصل بين هذين المستويين المتغايرين ...

هذه هي (الخصيصة الأولى) ، وهي هامة جداً . لا يقوم ، بدونها ، رمز ولا أسلوب رمزي . أياً كان نوع هذا الأسلوب الرمزي ...

أما (الخصيصة الثانية) - وهي أقرب ما تكون خصيصة بلاغية سنستعينا بصورة خاصة عند الكلام في رمزية النعوت الحسية - فهي تتعلق بنوع العلاقة التي تربط بين هذه الصورة الحسية ، وبين معناها الرمزي . وهذه الخصيصة هي أن

(١) مجلة (الأدب) القينالية عدد ايلول ١٩٤٧ ص ٦ - ١٢؛ وعدد تشرين الأول ١٩٤٨

ص ٦٣ .

(٢) من الجبر أن نذكر هنا أيضاً ما قاله الأستاذ جورج ديكا في مقالاته السابقة الذكر في هذا المجال ، ومعرفاً هذا التعريف (بشير إلى تعريف الأستاذة هارشفيلد ، توما ، ودار مستقر) الرمز يستلزم دائماً مستويين ، أحدهما مستوى الأشياء التي نرمزها ، والآخر مستوى الرمز نفسه (بقصد الصورة الحسية للرمز) ؛ توجد على المستوى الأول التجريدات والمخالفات المعنوية التابعة لنظام الفكرى ، أو العاطفى ، أو الإرادى ، والتي ، بطبيعتها ، لا تعرف معرفة حسية ، والتي بالرمز ، تنطق شيئاً من طبيعتها على مستوى التمثل الحسى . (ص ٢٦٦) .

تكون العلاقة بين الصورة الحسية وبين معناها الرموز بها . علاقة (المشابهة) . وذلك أنه من المعروف في البلاغة أن العلاقة بين المشبه والمشبه به على أنواع (١) ، أهمها - والتي تعيننا هنا علاقة (المشابهة) هذه التي هي علاقة الخاز ، لأن الرمز مجاز (٢) .

٢

الرمزية - أنواعها - سيكولوجيتها

التعريف برمزية النعوت الحسية وتفسيراتها السيكولوجية ...

فهذا هو الرمز ، وهذه هي مفاد . وهذه هي خصائصه ؛ ولكن الرمز وحده لا يؤولف الأسلوب الرمزي ؛ أو لنقل الرمز وحده ليس كلاماً ، وإنما الرمز أبسط لبنة فنية في الأسلوب الرمزي ، ولذلك لا بد لنا هنا إذن من اعتبار الرمزية في الأسلوب كله .

١ - الرمزية ظاهرة تعبيرية

واعتبار الرمزية في الأسلوب كله يضطرنا إلى تقسيم هذه الرمزية تلك الأقسام الثلاثة التي بدأنا بها هذا البحث ؛ والتي هي : حسب مجالات التعبير : أولاً : رمزية تعاطفية ؛ وثانياً : رمزية الأسلوب الفلسفي ، أو الصوفي . أو الحكيم ؛ وثالثاً : رمزية النعوت الحسية .

وهذه الأنواع كلها - رغم ما بينها من فروق جمالية وفنية - يمكننا أن نعرفها : بأنها أسلوب حسبي ، ترمز صوره الحسية حالات معنوية لا تقع تحت الحواس . كما رأينا نفس هذا التعريف في الرمز والتشبيات الرمزية .

(١) - هناك أنواع أخرى من العلاقات بين الشيء والمشبه به ، مثل علاقة (الناقلية) أو علاقة (الجزء بالكل) أو علاقة (السبية أو السببية) أو علاقة (ما كان أو ما سيكون وهكذا) التي هي علاقات المجاز المرسل ... (راجع مختصر سعد الدين التتائزي) السابق الذكر ، الجزء الثاني (س ٢٠٨ - ٢١٤) .

(٢) - يقي مقارنة الرمز (Symbole) بالاليفوريا (Allégorie) أو التشبيه الرمزي البسيط ، إلا أنني أعرض هنا عن هذا ، مكثفاً بهذه الخصائص والملاحظات التي ركزنا فيها كل ما يتعلق بالرمز ؛ علاوة على أن بلاغتنا العربية القديمة لا تعرف شيئاً من هذا الرمز والاليفوريا التي نحاول اليوم إدخالها فيها ...

ب - رمزية النعوت الحسية - إمكانيتها

ولكن - هنا الآن إذ ندخل في المجال الحسي - كيف تقوم الرمزية في التعبير عن انطباع الأحاسيس في النفس ، ونحن نقول إن الأسلوب الرمزي ، بل إن الرمز نفسه ، لا بد لقيامه من ذبذبات المستويين المتغايرين ، مستوى المعنويات ، ومستوى الحسوسات ، ونحن هنا على مستوى واحد هو مستوى الحسوسات .

الحقيقة ، لقد بدأ الأساتذة^(١) (هارتفيلد ، ثوما ، دارمستر) يطرحون هذا السؤال على أنفسهم ، ويتساءلون في إمكان اعتبار التعبير ، في المجال الحسي ، من نعت إحساس بنعت إحساس آخر ، تعبيراً رمزياً ؟ ! وما عثموا أن أجابوا على هذا بالنفي : أي قالوا : إن تعبيرنا عن انطباع الأحاسيس في أنفسنا ، أيا كان نوعه ، وكيفما قرنا فيه إحساساً بإحساس آخر ، ليس رمزياً ، لأنه ما دام على مستوى الحسوسات ، ينقصه المستوى الثاني الضروري لقيام الرمزية ألا وهو مستوى المعنويات ! ! وأما الأستاذ جورج ديما^(٢) ، الذي فصل القول في هذا تفصيلاً دقيقاً فيما ، فإنه يقول - وأنا أميل إلى الأخذ برأيه - أننا يمكننا أن نعتبر هذا النعت - أي نعت إحساس لحاسة ما بنعت إحساس لحاسة ثانية ، وهذا هو المقصود برمزية النعوت الحسية - يمكننا أن نعتبر هذا النعت إذن (نعتاً رمزياً) ، بشرط أن يكون قائماً على المشابهة ! !

وذلك أنه ، إن كان هذا التعبير هو ، فعلاً ، تعبير في المجال الحسي ، إلا أننا في الحقيقة ، يجب أن لا يفوت عنا ، أن كل حاسة من حواسنا غرفة مستقلة بذاتها ، مغلقة على نفسها أو كما يقول الأستاذ جورج ديما ، هي عالم مغلق^(٣) (monde clos) وإن مثلها بالنسبة إلى أخيها الحاسة الثانية . مثل أحد ذبذبات المستويين اللذين كنا اشتراطناهما لقيام الرمز والرمزية ، بالنسبة إلى المستوى الآخر الذي يرمزه .

بعبارة أخرى : أن نعت إحساس ما من أحاسيس حواسنا الخمس ، بنعت إحساس آخر لحاسة ثانية ، نستطيع أن نرى فيه (الخصيصة الأولى) للرمزية بمجرد اعتبار كل حاسة من هذه الحواس ، مستوى قائماً بذاته ، مثله بالنسبة إلى الحاسة

(١) - راجع إلى جانب قاموسهم ، مقالة الأستاذ جورج ديما السابقة الذكر (ص ٢٧٢) .

(٢) - Nouveau Traité de Psychologie - Paris - Alcan - 1943. Tome IV. Pp. 364-337.

(٣) - المصدر السابق الذكر : (ص ٢٧٢) .

الثانية ، مثل أحد ذبك المستويين بالنسبة إلى المستوى الآخر ، وهذا سهل تصويره .
 « فمثلاً - وهذه الفقرة من كلام الأستاذ جورج ديما^(١) - نحن نقول في «
 اللون ، أنه حار ، بارد ، براق ، صارخ ، وتكلم عن رقة للألوان ، أو سلم ،
 لها ، ونقول في الصوت إنه ملون ، أبيض ، مظلم ، حاد ، ثقيل ، عميق ،
 سكري ، عارض ، واضح ، ونعت بعض الأحاسيس بأن نقول فيها إنها معبجة ،
 باردة ، دبكة ، ناعمة ، حادة ، عميقة ، ذات حجم ، ضخمة ... ونعت بعض
 الروائح بأن نعتبرها شائكة ، مدبوخة ، ثقيلة ، خفيفة ، ملساء ، ... إلخ... إلخ »
 أفلا تستحق كل هذه النعوت القائمة بين حاسة وأخرى (هذه التقلات) إذا كانت
 قائمة على أساس المشابهة ، أن توصف برمزية ؟؟ ...

بلى !! . ولكن يبقى أمر الحصيدة الثانية ، أمر المشابهة ، والتي يشير إليها
 أيضاً الأستاذ جورج ديما في نصه الأخير هذا !!

وهذه الحصيدة الثانية هامة جداً ، لا بد من توفرها للنعوت الحسية كي نعتها
 برمزية : بل أنها أكثر أهمية من الحصيدة الأولى ، لما لها من حيلة عميقة بسيكولوجية
 هذا التعبير الحسي الرمزي !! .

وذلك أننا ، عند ما نقول : إننا علينا أن لا نعتبر رمزياً إلا هذا النعت القائم
 على المشابهة بين الإحساسين ، علينا أن نبعد عن مجال البحث تلك النعوت القائمة
 على (اقتران - Association)^(٢) إحساس بإحساس آخر ! .

وذلك أنه من المعروف في تشريح الحواس ، أن الحاسة الواحدة ، فيها مراكز
 لحواس مختلفة : فمثلاً أن حاسة اللمس فيها مراكز اللمس ، والحرارة ، والألم ،
 وقل مثل هذا في حاسة السمع أو حاسة البصر ، علاوة على ما تضيفه الحساسة
 الباطنة . من إحساسات عقلية وقرية^(٣) !! . فهذه الإحساسات المقترن بعضها

(١) - المصدر السابق الذكر : (ص ٢٧٢ - ٢٧٣) .

(٢) - كتل على هذا الإقتران ، يقول الأستاذ جورج ديما (المصدر المذكور ص ٢٧٤) :
 « حينما نقول في الصوت إنه عال أو واطئ ، فليس هذا من أننا ندرك هنا علاقة بين الصوت
 وبين مسافات الارتفاع أو الرطوب ، وإنما هذا من أن الحنجرة ترتفع عند إرسالها الأصوات الحادة
 وتنخفض عند إرسالها الأصوات الثقيلة ... » .

(٣) يقول الأستاذ جورج ديما (المصدر المذكور ص ٢٧٣) إننا علينا أن نمدد بصورة خاصة
 « نعوت الأساس العائدة للأعضاء الحسية : والحرارية ، والعقلية ، والتي هي في الواقع مزوجة
 بحواس البصر ، والسمع ، والشم ، والذوق » .

ببعض يجب عزفاً عن مجال البحث ، لأعتبار النوعت القائمة على (المشابهة analogie) فقط ، نوعاً رمزية !! .

ج - علاقة المشابهة في النوعت الحسية -

المشابهة بين النوعت الآلية والهندسية ...

وهنا إذن نقول : بعد أن أبعدنا هذه النوعت القائمة على أساس اقتران إحساس بإحساس آخر - نقول إن رمزية النوعت الحسية لا تقوم إلا عند ما ندرك ، بين أحاسيس حواسنا المختلفة ، (مشابهات) تبرر نقل نعت إحساس ما إلى إحساس آخر !! .

ومعنى هذا أننا فتحنا هنا المجال لمخيلة الفنان ، أوالمعبر - وسنرجع في سبيلولوجية هذه الرمزية الحسية ، لندقق في مدى هذا الفتح - نرى في النفس ، هذه المشابهات الناشئة من الطباع الأحاسيس ، في حين أن تلك النوعت الأولى التي أبعدناها عن مجال البحث كانت نوعاً يحس بها المعبر عنها إحساساً ثم يعبر عنها ... والأمثلة هنا كثيرة . فمثلاً - وليرجع إلى الفقرة السابقة الذكر - نحن نقول في الصوت إنه صاف ، أو عكر ، أو حاد ، أو عميق ؛ ونقول في اللون أنه زفان ، أو ملتهب ، وفي الطعم أنه ضخم ، أو عميق ، وفي الرائحة أنها خفيفة أو مبتلة ... وهكذا مما نذكر فيه بعلاقة (المشابهة) بين إحساسين مختلفي المنبع ، هذه العلاقة التي تجعل النعت رمزياً !!

وفي كل ما سبق كنا نتكلم عن العلاقات الحسية الصرفة بين أحاسيس مختلفة المنبع ، ونعونها بعضها ببعض ، ولكن هنالك أيضاً علاقات حسية بين أحاسيس ونوعت آلية وهندسية كثيراً ما نعت بها تعبيراتنا ...

« فالهندسة والميكانيكا - وهذا من كلام الأستاذ جورج ديما أيضاً^(١) -
« المدخلتان في جميع المجالات الحسية المختلفة برمزية تلقائية : توجدان بهذا نوعاً من
« الرابطة ، واللغة المشتركة بين الأحاسيس المبعثرة ، كبنياً ، أبناً بعثرة .
« فالضخامة ، والحجم ، والثقل ، والخفة ، والعلو ، والساواة ، واللين ،
« والعمق ، تتدخل لتنت نعتاً كيباً أحاسيس الذوق ، والبصر ، والسمع ، ولتعتبر
« عنهم تعبيراً رمزياً بلغة المساحة ، والخطوط ، والحجوم ، والقوى . »

كان نقول مثلاً في الصوت أنه ثقيل ، أو ناعم ، أو خفيف ، أو حاد ، أو نقول في الطعوم إنها ضخمة ، أو سطحية أو عميقة ؛ وفي الروائح أنها خفيفة أو ثقيلة ، أو مرطعة وهكذا وهكذا من نعوت كمية !!!

نعم . ولقد استشهد أيضاً الأستاذ جورج دريما على هذا كله^(١) ، بقطعتين حسيّتين رمزيّتين جميلتين من الأدب الفرنسي ، نثب هنا منهما للفائدة هذه القطعة الغابطة . وهي لـ (هيسمان - Huysmans) . وهو يصف شعور أبطلال روايته^(٢) (A Rebour) بالإحساسات السمعية المختلفة الصور التي خلقها في أنفسهم جرعاتهم لأنواع الخمور . قال : « فخمرة (الكيراكاو) مثلاً تقابلها » الزمارة التي غشاؤها حاد أملس ، وخمرة (الكل) يقابلها الأورغل الذي رنته « خنا » والرجل الآخر هو الذي يتكلم من أقصى أنفه » . وخمرنا (المانت » والأنيزيت) يقابلهما الناي ، الذي هو في آن واحد سكري ، معصفر ، « مصوت ، وعذب » في حين أن خمرة (الكيرش) كئي تم التخت ، تلق البوق « في غضب ، وخمرنا (الجن والويسكي) بحملان انقصر يبريق سظامها الحاد ... إلخ ... إلخ ...

د - على عتبة الأسلوب الرمزي

فهذه هي إذن : النعوت الحسية الرمزية ، وهذه شروطها وبجالاتها . ولا بد لنا قبل الدخول في سيكولوجيتها ، من الكلام في رمزية (النعوت الحسي) للحالات السيكلولوجية ، عضوية كانت أو انفعالية ، أو فكرية) . هذا الكلام الذي نحن معه على عتبة الرمزية في الأسلوب .

والمقصود برمزية النعت الحسي للحالات السيكلولوجية المختلفة ، هذه الرمزية الناشئة ، لا عن نعت إحساس بإحساس آخر بينهما مشابهة ، كما في الأمثلة السابقة . وإنما هي الرمزية الناشئة عن نعت الحاجات ، أو الغرائز ، أو الرغبات ، أو العواطف ، أو الانفعالات ، أو المعاني أو الأفكار ، بالنعوت الحسية ، هذا النعت الذي ، إن كان قائماً على (المشابهة) فهو رمزي .

نعم ونحن هنا أيضاً ، نشترط أن يقوم النعت على (المشابهة) ... وذلك أننا هنا أيضاً علينا أن نبعد عن مجال البحث النعت القائم على (اقتراح) الحاجات .

(١) - المصدر المذكور (ص ٢٨٠) .

(٢) - A Rebour — Huysmans — Paris — Charpentier 1884 .

أو الغرائز ، أو الرغبات ، أو العواطف ، أو الانفعالات ، أو المعاني ، أو الأفكار ، اقترانها إذن بالنعت الذي يعنينا (١) .

بل في الحقيقة ، هنا ، نرى أن « الحالات » ، مثل الجوع ، والعطش ، أو الحاجة « الجنسية » ، وحاجات عضوية غيرها ، لا تستعمل الرمز قط ، لأن نصيب العناصر « الصورية فيها » ، التي يمكننا أن نعبر بها عنها ، ضئيل نسبياً ، بينما نصيب « الإحساسات العضوية فيها » ، كبير جداً (٢) .

مثل ذلك هنا — وهذا ليس رمزياً — قولنا إن الإنسان ممتلئ ، أو محروق رغبة ! أو قولنا في العطش إنه محرق ، وفي الخنجر العطشي إنها مخففة من العطش ... فكل هذه النعوت الحسية ، مردوها شعور حشوي بالحرارة أو الامتلاء أو الانهدام ، تسببها الإفرازات في الجهاز الهضمي أو التناسلي !!

بل أبرز مثل على ما يجب إبعاده (٣) عن مجال البحث الرمزي ، مع العواطف والانفعالات ، هو ما جربت (نظرية لانج وجيمس) (Théorie de Lange - James) أن تظهره ، من اقتران (إحساسات عضوية) ، بانفعالات ، هذه الاحساسات في أساس تكوينها !! مثل قولنا : مخنوق من الضيق ، أو متجمد من الرعب وهكذا ...

وعلى كل حال ، هنا نرجع فنقول إن هذه النعوت الحسية للحالات السيكولوجية لا بد لها ، كحي تعتبرها رمزية من أن تكون قائمة على (المشابهة) ... والأمثلة على هذا كثيرة ، منها مثلاً نعنا ، الفرح ، أو الحزن بأنهما سطحيان ، أو أنهما عميقان أو أنهما محدودان ، أو أنهما ضيقان ، أو أنهما ضخمان وهكذا ...

٢

سيكولوجية الرمزية الحسية

فهذه إذن رمزية النعوت الحسية : وهي ظاهرة تعبيرية خاصة لها شروطها الدقيقة — التي أبرزها وجوب قيام النعت على المشابهة — وهذه أيضاً — بصرف النظر

(١) — المصدر السابق الذكر (ص ٢٨٤).

(٢) — راجع إلى جانب المصدر السابق الذكر (ص ٢٨٣) ، ما جاء في (ص ١١٨ —

١٩٩) من كتاب الدكتور يوسف مراد : (مبادئ علم النفس العام) ، الطبعة الأولى — ١٩٤٨

عن تلك النعوت المقترون لإحساس المرء بطرفها فيه - هذه إذن ، مجالاتها الواسعة ، المسموح فيها للمخيلة أو للفكر بإدراك المشابهة بين إحساسين ، أو بين حالة نفسية وإحساس ، ثم التعبير عنها !! . فإذا نقول في سيكولوجيتها ؟؟

١ - تحديد دائرة البحث السيكلوجي

لا بد لنا قبل كل شيء من تحديد دائرة البحث السيكلوجي . وهذا بإبراز خاصية هذه الظاهرة التعبيرية المتميزة ، التي هي رمزية النعوت الحسية . فنحن هنا في مجال من مجالات الرمزية : ومعنى هذا ، هو - أننا علينا أن نحدد بحثنا السيكلوجي فيها ، بكل ما يدور حول (ظاهرة الرمز والرمزية) ؛ لا أن نذهب لنضل في ما حول هذه الظاهرة ؛ ولا سيما ، ونحن نعلم - كما لا حظنا هذا مراراً - أن هنالك نوعاً حسية أخرى^(١) ، ليست رمزية ، قد جربنا أن نبعتها في الفقرات (ب - ج - د) السابقة ، هي لا نهما في شيء ، في هذا البحث الذي نحاول أن نتبين فيه سيكولوجية (الرمز) في المجال الحسي ! .

نعم - لنؤكد هذا - : الذي يهمنا هنا ، إنما هو (ظاهرة الرمز) في النعوت الحسية ، لا ظاهرة النعوت الحسية عامة !!

وإذن ، كتركيز للأفكار ، وزيادة في الإيضاح ، لنعترف ، أولاً ، بأننا في المجال الحسي عندنا ظاهرتان تعبيريّتان عن انطباع الأحاسيس في النفس ، إحداهما رمزية ، هي التي نهما هنا ، والأخرى ، عادية ، عامة ، غير رمزية ، قد جربنا أن نبعتها عن مجال البحث !! ثم ، ثانياً ، كما أن لكلتا هاتين الظاهرتين الحسيتين الرمزية منهما وغير الرمزية ، سيكولوجيتها . فنحن نحب هنا أن نبرزهما كليهما ، مع مختلف التفسيرات المذهبية التي تعرضت لها : فنكون بهذا كله قد عرضنا سيكولوجية المجالات الحسية من جميع وجوهها ...

ب - التفسيرات السيكلوجية لظاهرة النعوت الحسية عامة ...

وهنا نقول : إننا عندنا ، في تفسير ظاهرة النعوت الحسية ، عامة ، أي من غير

(١) لقد حرصت هنا على عرض الأفكار التي هي في أصل تكوين هذه الظاهرة التعبيرية، التي هي ظاهرة النعوت الحسية ، رمزية كانت أو غير رمزية ، مع التذليل الواجب المفيد عليها في مجالها العادي والرمزي ، ولا بأس لمن أراد الاستزادة من هذه الأمثلة ، الرمزية وغير الرمزية، أن يرجع إلى مقالة الأستاذ (جورج دينا) السابقة الذكر (س ٢٧٢ - ٢٨٥) ففيها تحليل مستفيض لما هو رمزي ، وما هو عادي من هذه النعوت .

الالتفات إلى إبراز ما هو رمزي من بين هذه التبعوت . عندنا إذن ثلاثة أنواع من التفسيرات ، أحدها : (تفسير ارتباطي) (explication associative) والثاني : (تفسير عضوي) (explication organique) والثالث : (تفسير صيغي) (exp. genaltique) . وستعرضها هنا بتركيز ، لنحيل بعدها إلى تفسير سيكولوجية الظاهرة الرمزية نفسها .

أما (النظرية الارتباطية) ، فهي ترد^(١) هذه الظاهرة التعبيرية الحسية : من نعت إحساس بإحساس آخر ، إلى اقتران اتفاق بين الإحساسين . بحسب المرء في نفسه ، من تجاربه النفسية ، وبخاصة ما يرجع منها إلى طقواته الأولى . ويبلغ عنها تعبيراً مباشراً .

بعبارة أخرى . هي لا تعترف لهذه الظاهرة التعبيرية الحسية بأساس عضوي أو سيكولوجي . اللهم إلا هذا الاقتران ، التذكري ، الذي يمكننا أن نفسره بما تفسر به الذاكرة وذكرانها المتفرقة على أساس المشابهة أو التضاد وهكذا ...

وهي نظرية سوف نقبلها نحن لتفسير (ظاهرة الرمز) . بصورة خاصة ؛ إلا أنها لم ترض ، لا أصحاب النظرية العضوية . ولا أصحاب النظرية الصيغية ... الذين ذهبوا يطلبون مثلاً^(٢) أن نحدد هذه « التجارب التي ولدت هذا الاقتران » النفسى ، أو أنهم يقولون أن هذه الاقترانات قردية جزئية ؛ والظاهرة أكثر عمومية وأكثر اطراداً يمكن لكل إنسان . كما يقول الأستاذ (فرنر Werner) ، أن يقف عليها في الظروف الملائمة .

نعم ، لم ترض (النظرتان العضوية والصيغية) بتفسير هذه (النظرية الارتباطية) — وهي كما نرى نفسية صرفة — لأنهما كليهما جعلتا لهذه التبعوت الحسية (أساساً) في تركيب المرء العضوي والسيكولوجي . ولم تفرقا في أمر هذا الأساس . إلا فروقاً طفيفة . كما سنرى هذا الآن .

تقول (النظرية العضوية) : إن مرد هذه الظاهرة التعبيرية الخاصة ، التي هي

(١) — انظر في هذا ما كتبه الأستاذ (بول غيوم P. Guillaume) في كتابه (علم النفس الصيغي — La psychologie de la forme) طبعة باريس ١٩٣٧ (ص ١٩٢ — ١٧٣) .

(٢) — راجع في مجلة علم النفس السوي والمزمي (الفرنسية) Journ. de Psych. norm. (مجلة علم النفس السوي والمزمي) سنة ١٩٣٤ — وهي موجودة في مكتبة الجامعة المصرية تحت رقم (R-٧) (et path.) . مقالة الأستاذ (فرنر Werner) : (وحدة الحواس — Unité des sens) : (ص ١٩٠ — ٢٠٥) .

ظاهرة النعوت الحسية ، إنما هو : وجود « وحدة عضوية للحواس (Unité organique des sens) . بعبارة أخرى ، مرددا وجود طبقة شعورية مشتركة بين الأحاسيس كلها ، يسميها الأستاذ فرنر (Werner) : (الطبقة السينستيزية) (Gouche synesthesique) هذه الطبقة التي هي في أساس هذه التعبيرات الحسية ، إذ أنها كما يقول^(١) هو فيها أيضاً : « الحساسية الواحدة المشتركة ، التي تختلف ، ابتداء منها ، الظواهر الخاصة ، في المجالات الحسية المختلفة ... » . نعم ، ولقد حاول السيكلوجيون والنسبولوجيون القائلون بهذه النظرة العضوية ، حصر هذه الإحساسات المشتركة بين جميع الحواس ، فذكروا لنا منها هذه الإحساسات الآتية ، أو لنقل معهم هذه (الصفات المشتركة) ^(٢) (Qualités communes) وهي : الوضوح (la clarté) والشدة (l'intensité) ، والخشونة (la rugosité) التي يقول^(٣) فيها الأستاذ (فرنر Werner) : « أنها كلها قائمة على أن التركيب السيكوفيزيقي يعمل بمجموعه ، قبل أى انفصال تنفصله الدوائر المتميزة للحساسية ، وهذه المجموعية (Totalité) هي الأساس المشترك الذي تختلف ، عليه ، الظواهر الحسية المختلفة . » إلخ ... إلخ ...

وهذه النصوص تقطع قطعاً تاماً - على ما فيها أيضاً من نزعة دينامية في تفسير الظواهر النفسية - تقطع بوجود هذه (الطبقة السينستيزية) المشتركة بين الحواس كلها ... وعلى كل حال ، تكفيها نحن هنا ، هذه النتائج ، وهي نتائج وصل إليها هؤلاء العلماء السيكلوجيون والنسبولوجيون بعد تجارب^(٤) لهم عدة في المجال الحسي ، ودقيقة ! لنميل إلى الكلام في (النظرة الصغية) في تفسير ظاهرة النعوت الحسية هذه وهي نظرة قريبة من هذه النظرة العضوية .

نعم (النظرة الصغية) قريبة من النظرة العضوية في تفسير ظاهرة النعوت الحسية بالأساس التركيبي ، ولا أقول العضوي ، المشترك بين الحواس ، أو بالأحرى بين

(١) - المصدر السابق الذكر (ص ٢٠٠) .

(٢) - « * * * » (ص ١٩٣) .

(٣) - « * * * » (ص ٢٠٢) .

(٤) - لقد كانت تجاربهم ، كما يحدثنا (فرنر - Werner) في مقاله السابقة الذكر (ص ١٩٥) على نوعين : نوع منها يدين تأثير (Influence) إحساس في إحساس آخر ، من أجل إبراز صلتها وبالتالي وجود طبقة سينستيزية مشتركة بين الحواس ، والنوع الثاني ، يحدد الدوائر السيكلوجية التي يعنى فيها التمرور بانفصال المجالات الحسية المختلفة .

حاستين ! إلا أن هذه النظرة الجديدة ، تدخل ، هنا أيضاً ، في المجال الحسي الداخلي ، فكرة (الصيغة) : الصيغة التي هي أشبه ما تكون بـ قالب سيكولوجي — هو تارة عضوي ونفسي ، وتارة نفسي واجتماعي ، وتارة داخلي فقط ، وتارة داخل وخارجي — منصبة فيه ، وبصورة فطرية طبيعية أولية ، أحاسيسنا ، المحسوس بها في كل لها ، وعواطفنا ، المشعور بها في كل لها ، ومدركاتنا ، المدركة في كل لها ، وجميع حالاتنا النفسية ، بل والعقلية أيضاً ، كما ذهبوا إلى هذا أيضاً .

وعلى كل حال ، لنقل هنا في مجالنا الحسي الداخلي ، إن نعمتنا الإحساس بإحساس آخر ، كأن نقول مثلاً : لون صارخ ، أو صوت ثقيل ، أو رائحة حراء ، وهكذا مما يوحي بأن هذه النوعات الحسية (كل Tout) موحدة ، هذا نعمت إذن واجع إلى تركيب حواسنا هذا التركيب الصيغي الخاص الذي يجعلنا نحس بهذه الككل الحسي ، إن صح التعبير ، هذا الإحساس الذي يقول^(١) فيه الأستاذ (بول غيوم — P. Guillaume) أنه : « بدائي ، أولي ، » رغم تعقده ، لا يمكننا تحليله ، بل هو أبسط ما يمكن الرجوع إليه في تحليل مضمونتنا النفسية ، في حين أن النظرة الارتباطية كانت تقول إن هذه النوعات « مرتبط بعضها ببعض ، وثانوية » مردها ، لا الصيغة المنظمة ، ولكن مردها عند هؤلاء الارتباطيين^(٢) « الإدراك الموضوعي ، العملي ، العلمي . »

بعبارة أخرى ، إذا أردنا أن نجتمع الآن هذه النظرات الثلاث ، ونقارنها بعضها ببعض ، يتبين رأينا أن النظرة الارتباطية تجعل هذه النوعات الحسية من عمل الإدراك الباطني ، الذي يفسر عندهم تفسيراً نفسياً صرفاً ، نرى أن النظرتين العضوية والصيغية تجعلان هذه النوعات الحسية أساساً تركيبياً عضوياً !!! فماذا نقول في (ظاهرة الرمز) في النوعات الحسية : أو بعبارة أخرى ، ماذا نقول في سيكولوجية (النوعات الحسية الرمزية) الخاصة ٢٢ .

ج — سيكولوجية النوعات الحسية الرمزية خاصة

في إظهار سيكولوجية هذه النوعات الحسية الرمزية ، نقول ، إننا ، لا نحكي علينا ، منطقياً ، وقبل كل شيء ، أننا ما دمنا كنا اشترطنا لقيام الرمزية ، ذلك الشرط

(١) في كتابه السابق الذكر (علم النفس الصيغي) (ص ١٠٥) .

(٢) المصدر نفسه (ص ١٩٤) .

الأساسي ، وهو وجوب قيام النوع بين الإحساسين على أساس (المشابهة) ، لا على أساس (الاقتران) ، لا يمكننا قبول (النظرة العضوية) التي تقول بوجود ذلك (الأساس العضوي) المشترك بين الحواس ، لأننا نحن نبتعد عن مجال بحثنا الرمزي كل نعت قائم على اقتران إحساس المرء بطرفه في نفسه ، لنبقى على النوعية القائمة على أساس المشابهة الصورية الفارغة من المضمون الوجداني أو الشعوري العضوي .

* * *

هذا فيما يتعلق بالنظرة العضوية ، أما فيما يتعلق (بالنظرة الصبغية) ، فإنها في الحقيقة تقبل في بعض المجالات الحسية ، بكونها ارتفعت بالتفسير من مجال عضوي محسوس به إلى مجال سيكولوجي تركيبى ، لولا أنها نظل تفسيراتها في نطاق ضيق ، مطبقة على نعوت خاصة ، ولذلك لم يبق أمامنا إلا (النظرة الارتباطية) ، لا أقول لقبليها بكتلتها ، لتحل مشكلة هذه النعوت الرمزية ، ولكن لتستفيد منها في التفسير الخاص لظاهرة الرمز في هذه المجالات الحسية أيضاً .

نعم ، إذا كانت تلكم ظاهرة النعوت الحسية الرمزية ، فما الذى في نشاطنا النفسى ، أو لنقل في عملياتنا النفسية تجعلها هكذا ؟ !

د - ملكة الرمز ووظيفتها في المجال الحسى .

لعل الذى سيساعدنا على الإجابة هنا هو أن نلاحظ هذه الملاحظة ، وهى : أننا وإن كنا نجد هنا دائرة البحث بنطاق النعوت الحسية الرمزية ، إلا أن (ظاهرة الرمز) ليست مقتصورة على المجال الحسى ، بل إنها تلمحها في شتى المجالات الحسية والوجدانية ، والانفعالية ، والفكرية ، كما رأينا طرفاً من هذا أيضاً في (الفقرة د) السابقة : الأمر ، الذى دعا الأستاذ (جورج ديما) إلى القول بوجود (ملكة للرمز) هى من الملكات العامة المنظمة للحياة النفسية ، لها مجالها ، كما أنها لها شروطها ووظائفها الخاصة .

ورغم أنى أحب هنا أن لا نبتعد عن المجال الحسى الذى ندرس ظاهرة الرمز فيه ، إلا أنه لا بأس من أن نذكر هنا ما وصل إليه الأستاذ جورج ديما ، في استقرائه ظاهرة الرمز في شتى المجالات الحسية ، والوجدانية ، والانفعالية ، والفكرية التى تعمل فيها !! . فقد وجد^(١) الأستاذ (جورج ديما) : « أن الأسباب الداعية ، إلى الرمز هى دائماً واحدة ، وهى : صعوبات (المعرفة المباشرة) ، وصعوبات ،

« (التعبير المباشر) ، السيكولوجية منها والأخلاقية ، نوعان من الصعوبات لا «
 « يؤلفان إلا نوعاً واحداً . »

نعم ، ولقد فكرت طويلاً في أمر ظاهرة الرمز في المجال الحسي وغير الحسي
 وقارنت بين مختلف النظرات المذهبية التي تعرضت لتفسيرها ، فوجدتني في النهاية
 أميل إلى الأخذ بأراء الأستاذ جورج ديما هذه . وأميل إلى القول معه بوجود هذه الملكة
 العامة المنظمة ، التي هي ملكة الرمز ، والتي تعمل في شتى المجالات النفسية ، في
 شروط معينة ، وحسب قوانين معينة ، والتي : « إذا قورنت بالحدس الحسي ، أو «
 « الحدس العقلي ، أو حدس الحياة الداخلية ، أو الحدس الفني ، ليست ، في «
 « مجالي (المعرفة) و (التعبير) ، إلا وسيلة غير مباشرة ... إلخ ... إلخ (١) »
 وهذا معناه إذن ، أننا علينا ، أن نربط ظاهرة الرمز في (المجال الحسي)
 — ونحن منذ الخطوة الأولى نحدد : أننا يهمنا من التبعث الحسية ، التبعث الرمزية
 فقط وسيكولوجيتها — نربطها إذن بشئى المجالات الثانية التي تعمل فيها هذه الظاهرة ،
 وأنها علينا بالتالى أن لا نضيق على أنفسنا مجالات البحث والتجربة . لندرس صلة
 إحساس بإحساس ، أو الكشف عن طبقة مشتركة للحواس وهكذا ... وإنما علينا
 أن نتناول المسألة تناولاً أكثر شمولاً : فتأمل فيها الإنسان ، وهو يحاول المعرفة ،
 معرفة عالمه الداخلى ، أو معرفة العالم الخارجى : ثم يحاول التعبير عن معارفه هذه .
 فلا يجد أمامه إلا صعوبات ، في المعرفة وفي التعبير ، صعوبات من أية ناحية
 سلكت إلى النفس وعوالمها ، من الناحية العضوية ، أو السيكولوجية أو الاجتماعية .
 ونحن إذا تذكرنا أن هذه النفس الإنسانية ، ليست — كما يظن البعض —
 شيئاً من السهل معرفة مضمونه . أو ضبط هذا المضمون : وإنما هي في الحقيقة ،
 دنيאות هاربة ، متموجة ، دقيقة ، دنيאות من الغرائز والوجدانات ، والانفعالات ،
 والأهواء ، والأحاسيس ، والأفكار تعيش كلها في الظلام ، في الجانب اللامرئ
 من الإنسان ، في الجانب اللاشعورى الرحب الأفق ، البعيد الغور ، الغامض
 غموضاً مريباً لعمري ... أقول إذن ، إذا نحن تذكرنا هذا كله ، عرفنا القيمة
 الكبرى التي لوظيفة ملكة الرمز هذه . وهي تحاول (معرفة) هذه الجوانب ،
 معرفة حديثة ، كما تحاول (التعبير) عنها تعبيراً حديثاً أيضاً . تجسد المعنوى
 بالحموس ، وتوهم بالقرب إلى البعيد ، وتتغلب على صعوبات هذه المعرفة وذلك

التعبير بهذا الالتفاف الرمزي حول الحالة النفسية ، أيا كان نوعها ... وهكذا ... وهكذا . مما هو واضح في كلام المتصوفة : والمبتدئين يقيمين . والفنانين اللامسين هذه الجوانب الغامضة في أنفسهم لمأ ...

و (المجال الحسي) نفسه - مثل غيره من مجالات هذه النفس الإنسانية - صعبة معرفته ، وصعب التعبير عنه ... ولا عجب إذن - في المجال الرمزي منه : أي المجال الذي تكون النعوت الحسية فيه قائمة على (المشابهة) لا على (الاقتران) - لا عجب إذن أن نرى النفس هنا كما تعرف هذا الانطباع الذي تنطبعه الأحاسيس فيها . أو كما تعبر عنه تعبيراً مباشراً شافياً ، تلجأ إلى الرمز ، فتقرن إحساساً بإحساس أو حالة نفسية بإحساس . وهكذا ، مما نشعر معه بأن السبب في الرمز (في المجال الحسي) هنا ، ليس وجود تلك (الطبقة السببانية) ، ولا وجود تلك (القوالب الصبغية) الجاهزة بين الحواس ، وإنما هو هذه (الصعوبات) المتخيل عليها نحايلاً ...

- الخلاصة -

وإذا حاولنا أن نللم الآن هنا ، ما قلناه فوق في ظاهرة النعوت الحسية وسيكولوجيتها ، وجدنا أننا علينا ، أولاً : أن نميز بين نعوت حسية رمزية ، وبين نعوت حسية عادية . وثانياً : إذا كانت لدينا ثلاث نظرات مذهبية ، ارتباطية ، وعضوية ، وصبغية ، لتفسير سيكولوجية هذه الظاهرة التعبيرية عامة ، فعلينا ، في الحقيقة - إذا نحن اقتصرنا ، كما فعلنا هنا ، على ظاهرة النعوت الرمزية فقط - علينا أن لا نحد أنفسنا بمذهب دون غيره ، بل أن نلاحظ الظاهرة في عموميتها ، ونستفيد من شتى النظرات ، وأن نلذ ، نشعر ، بأن ظاهرة الرمز ليست مقتصرة على (المجال الحسي) ، بل أنها أكثر عمومية ، تشمل المجالات النفسية كلها من حسية ، ووجدانية ، وانفعالية ، وفكرية ، وهكذا مما يدعونا إلى القول - في إطار علم النفس العام - بوجود ملكة عامة للرمز منظمة للحياة النفسية ، في محاولاتها المعرفة ، أو التعبير ...

القاهرة
عدنان الذهبي

(١) - أقول هذا لأني كنت عملت جهدي على أن أصطنع (النظرة الصبغية) في تفسير ظاهرة النعوت الحسية ، الرمزية وغير الرمزية ؛ إلا أنني وجدت نفسي ، بعد كل شيء ، وكما قلت هذا فوق ، في اتفاق تجريبي سبق ، في الوقت الذي نرى فيه أن ظاهرة الرمز أكثر عمومية وأكثر إصالة في النفس ، وهكذا مما دعانا إلى الأخذ بالرأى القائل بوجود ملكة لها هي من الملكات العامة الكبرى المنظمة للحياة النفسية .

Adnan Al-Zahabi : PSYCHOLOGIE DU SYMBOLISME (2)

Dans ce second article sur la psychologie du symbolisme, l'auteur traite de deux choses: En premier lieu il cite les différentes conceptions qu'on a du mot (symbole), s'arrêtant sur la définition, que la "Société française, de Philosophie" a discuté, dans sa séance du 7 mai 1918, et accepté, et qui est celle de "Harztfeld, Thomas, Darmesteter": "Le symbole est un objet sensible, considéré comme signe d'une chose qui ne tombe pas sous les sens, en vertu d'une analogie dont l'imagination a été frappée.", et d'où il tire les propriétés rhétoriques et psychologiques du symbole, que l'on trouve dans les divers genres de style symbolique, et qui sont:

1) Que "le symbole suppose toujours deux plans: celui de la chose que nous symbolisons et celui du symbole lui-même. Sur le premier plan se trouvent les abstractions et les réalités mentales de l'ordre intellectuel, affectif ou volontaire qui sont soustraites, par leur nature, à la connaissance directe des sens; c'est par le symbole que nous projetons quelque chose de leur nature sur le plan de la représentation concrète." (G. Dumas).

2) Que la relation entre le symbole et la chose symbolisée est "l'Analogie"

Puis, en second lieu, l'auteur traite du problème du (symbolisme sensoriel) et de sa psychologie, commençant par le définir, en indiquant ses conditions et ses domaines, qu'on peut résumer ici en disant, qu'il est ces transpositions qualificatives d'une sensation, comme la couleur, à une autre sensation, comme le son, comme quand nous disons: "couleur criarde".

Ici, l'auteur distingue deux sortes de qualificatif sensoriel, l'un symbolique, et qui est en vertu d'une (analogie) entre les deux qualificatifs sensoriels, et l'autre ordinaire, qu'on a essayé d'éliminer, et qui est en vertu d'une (association) anatomique des deux qualificatifs.

Cette distinction est capitale dans l'étude psychologique de ces qualificatifs sensoriels; car, presque tous les psychologues, et les physiologues, avant G. Dumas, ne distinguent pas entre ces deux sortes de qualificatifs sensoriels, et c'est pour cela qu'ils traitent ce problème d'une manière générale, sans faire ressortir le mécanisme de la symbolisation dans ce domaine sensible. Et selon ces psychologues et physiologues nous avons trois explications psychologiques de ces qualificatifs sensoriels: organique, gestaltique, et associationniste. Après avoir discuté ces différentes explication, l'auteur soutient l'existence d'une fonction générale d'organisation: la symbolisation, qui s'exerce dans les domaines sensoriel, affectif et intellectuel. Quant aux raisons qui nous portent à symboliser, elles se ramènent aux difficultés de la connaissance et de l'expression directes.